

الهند وثقافتها في كتابات جبرا إبراهيم جبرا:

"تأملات في بنيان مرمرى" نموذجاً

- د. عظمت الله¹

ملخص المقال

يتناول هذا المقال أبرز ما كتبه الأديب الفلسطيني جبرا إبراهيم جبرا عن الهند وثقافتها والعالم الأثرية الكائنة على أرض الهند كما يلقي الضوء الخاص على الانطباعات التي أبداهها الأديب جبرا في كتاباته، تجاه المعالم الأثرية وميزات العمارة التي تطوّرت في عصر الملوك المغول في الهند. وذلك من خلال سرد اقتباسات كتاب الأديب: "تأملات في بنيان مرمرى" على وجه الخصوص. ألّف الأديب هذا الكتاب بعد أن زار الهند في كبر سنه، وشاهد بأمّ عينيه، الهند وما تمتاز به علماً وثقافة وحضارة وعمراناً، فاندھش الأديب اندھاشاً شغلت الهند مكاناً مرموقاً في كتابات هذا الأديب العملاق.

ويتحدث المقال أيضاً عن الحياة العلمية لهذا الأديب بإيجاز، لتعرف على مكانته في مجال العلم والأدب بجانب الاطلاع على ما كتبه هذا الأديب الموهوب عن وطننا الحبيب وثقافتنا الغالية.

المدخل: تمتاز الهند عن دول العالم، باحتضانها ثقافات متنوعة ومعالم أثرية نادرة وتراث علمي غني منذ قديم الزمن، بما أسبغ الله تبارك وتعالى عليها من توافر مناهل العلم والثقافة. كما يقول الشاعر العربي خليل جبران:

¹ أستاذ ضيف، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملكية الإسلامية، نيودلهي

ما الهند إلا روضة كانت لأرقى الخلق مهذا
وطن الرؤى أبد الأبد ومعهد الأنوار عهدا
وبفضل هذه النعم، اكتسبت الهند مكانة مرموقة في كتابات الأدباء والكتاب،
وظلت الهند دوماً، وجهة مفضلة لدى سياح العالم، بحيث إنهم يشتاقون دائماً إلى
زيارتها فرادى وجماعات. مما دفعهم إلى تسجيل ذكرياتهم وانطباعاتهم مما استرعى
انتباههم من الحضارة والثقافة ومناظر المدن والأنهار، وما شاهدوه من الآثار والمباني
والمعالم الأثرية على أرض الهند. ومن أشهر المعالم الأثرية في الهند التاج محل، ضريح
قرينة الملك المغولي شاه جهان، والذي بناه تذكراً لقرينته المرحومة ممتاز محل. ونال
هذا المبنى إعجاباً وتقديراً بالغين من قبل السياح والزوار عبر العالم. حتى خط يراع
عدد لا بأس به من الكتاب والأدباء مقالات ومذكرات لا تنسى ولا تقدر بثمن، عن
الهند وثقافتها، وتتضمن قائمة هؤلاء الكتاب، الأديب الفلسطيني جبرا إبراهيم جبرا
الذي يعدّ من أبرز أعلام الأدب العربي الحديث، وهو كاتب غزير الإنتاج، وأديب
متعدد المواهب، ذاع صيته في مصاف كبار المثقفين العرب، ويحلون لنا التعرف على
إنجازاته الفريدة وحياته الحافلة بالعطاء والإبداع.

ترجمة موجزة للأديب جبرا

ولد الأديب جبرا إبراهيم جبرا في عام 1920م في مدينة بيت لحم بفلسطين في أسرة
مسيحية فقيرة، وتلقى التعليم الابتدائي في موطنه، ثم سافر إلى بريطانيا لنيل التعليم
العالى. وبعد إكمال التعليم، عاد جبرا إلى فلسطين وعاش فيها. ولكن بعد النكبة
الفلسطينية في عام 1948م توجه إلى بغداد لكسب الرزق، واستقر هناك حتى توفي
بها في عام 1994م¹ عن عمر يناهز 74 سنة.

1 مجلة النجم: <https://alnigm.com/%D9%88%D9%81%D8%A7%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AF%D9%8A%D8%A8->

وترك هذا الأديب العملاق خلفه إرثاً أدبياً هائلاً، إذ يربو عدد مؤلفاته على 60 إنتاجاً أدبياً بما فيها الرواية والقصة والشعر والنقد والمقالات والأعمال المترجمة، لذا تعتبر شخصية جبرا من أكثر الأدباء العرب إنتاجاً وتنوعاً.

وقد بدأ الأديب جبرا حياته الأدبية بكتابة القصة القصيرة التي نشرت في مجلة الهلال والأمل، حتى أصبح من أبرز وأشهر الروائيين في الأدب العربي، كما قدم إسهامات قيمة في مجالات الأدب المختلفة، بما فيها الرواية والقصة والشعر والنقد والترجمة، إذ ترجم جبرا أبرز الكتاب الغربيين للقراء العرب من أهمها ترجمة رواية "الصخب والعنف" لوليم فوكنر التي نال عليها فوكنر جائزة نوبل.

تزوج جبرا في 1952م بلبينة بريقي العسكري التي تعرف عليها في 1951م وهي انت فتاة عراقية كردية مثقفة،¹ فرزق بولدين وهما سدير وياسر. والجدير بالذكر أن جبرا قد أسلم على يد القاضي عبد الحميد الأتروشي قبل بضعة أيام من زواجه. لذا عند وفاته، تمت مراسم التشييع والتدفين على الطريقة الإسلامية.²

زيارة جبرا إبراهيم جبرا للهند وانطباعاته عن ثقافتها

زار هذا الأديب عدداً من البلدان الغربية مثل لندن وأمريكا ثم إيطاليا وروسيا وغير ذلك، حيث كان يفضل السفر إلى دول الغرب وليس إلى البلدان الآسيوية مثل الهند والصين وما إلى ذلك.

ولكن عندما زار الأديب جبرا جمهورية الهند في كبر سنه، وشاهد بأم عينيه الهند

%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%84%D8%B3%D8%B7%D9%8A%D9%86%D9%8A-%D8%AC%D8%A8%D8%B1%D8%A7-%D8%A7%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D9%87%D9%8A%D9%85-%D8%AC%D8%A8

2 عمر رضا، جبرا إبراهيم جبرا وإسهامه في الرواية العربية، رسالة الدكتوراه المقدمة إلى قسم اللغة العربية آدابها في الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي، عام 2018م، ص 73.

² <https://www.nedlshabi.ps/?p=60675>.

وما تمتاز به هذه البلاد علماً وثقافةً وحضارةً وعمراناً في تاريخ الحضارات والثقافات العالمية، وبما تحظى به من ثقافات قديمة ومتنوعة ولغات عديدة. فاندھش هذا الأديب اندھاشاً حتى شغلت الهند مكاناً مرموقاً في كتابات هذا الأديب العملاق.

لذا، قرّرت أن أحاول نقل كل ما كتبه الأديب الفلسطيني جبرا عن الهند وثقافتها وتقاليدها وكذلك انطباعات هذا الأديب العملاق تجاه الهند ومدنها الشهيرة مثل آخره ومومباي، ولاسيما عن ملوك المغول، وكذلك أهم المباني والقلاع التي شيدها المغول على أرض الهند، فيما خص جبرا إبراهيم كتاباً له باسم "تأملات في بنيان مرمي"، كعنوان الكتاب، وذلك باب ضمن أبواب الكتاب المذكور، ويضم هذا الباب 20 صفحة، تناول الأديب فيه، تاريخ الأمبراطورية المغولية وما قام به الملوك المغول من بناء المباني والعمارات الشائخة والمساجد والضرائح على أرض الهند. حيث إنه أشار ضمن تاريخ مدينة آغرة، إلى بعض الملوك الهندوكيين أيضاً.

وفي البداية، يعرب الأديب عن إعجابه واندھاشه بفن العمارة والهندسة التي تحتضنها الهند في طولها وعرضها، معترفاً بأنه كان مغرماً بالأسفار إلى بلدان الغرب مثل باريس وغير ذلك، ولكن عندما زار جبرا جمهورية الهند وشاهد بأمر عينيه، فن العمارة والتصميم المعماري والهندسة المعمارية التي تم تشييدها على أيدي الملوك المغول بسبب شغفهم ببناء المباني الشائخة، ذكر الكاتب بعد رؤية هذه المعجزات المعمارية، قول الغريين الذين يكتبون في سرد قصص الهند عن سحر الشرق، ويكتب الأديب ما يلي:

"قبل أيام عدت من سفرة إلى باكستان والهند: ثلاثة أسابيع من حركة مستمرة شاهدت فيها إسلام آباد، ولاهور، ثم نيودلهي وجايپور وخاجوراهو، وأكرا وبومباي... وأنا المعتاد على الأسفار دوماً باتجاه أقطار الغرب، وما شاهدته في شبه القارة الهندية من عمارة وفن أفهمني للمرة الأولى ما معنى أن يتحدث الغريون عن

سحر الشرق.... حتى أنني شعرت بأن الهنود ربما كانوا، في يوم ما، أعظم النحاتين، وأعظم المعمارين، في التاريخ الإنساني".¹

تدلّ كتابات جبرا على أنه معجب بمبنى التاج محل، بما يحمل هذا المبنى في طيه، رموز العشق والحب والجمال حتى أصبحت أحزان العشق مهرجاناً والموت مناسبةً تذكاريةً، فيقول:

"هذا الضريح تراه لأول مرة، كما رأيته، على الناحية البعيدة منك، من خلال بوابة كبيرة من الحجر الأحمر، فتحسب أنك فوجئت بوهم مستحيل: إنه طيب أبيض يكاد لا يستقر على الأرض بين خضرة حدائقه المسترسلة، التي تتخللها أسواق جارية كأنها أنهار الجنة، ورخام ناصع نحتته يد ساحرة ليبدو تجسيدا لجمال لا يوجد إلا في خيال محوم.....وتحس في صدرك ذلك الشد الرائع بين السماء والأرض.. فلا تستطيع الجزم هل أنت سماوي وجد مستقره في عالم الفضاء أم أرضي ينطلق نحو خلود ما".²

"هذا المبنى العجيب: الذي لا ينال من وقعه في النفس كونك تراه مع آلاف من الناس، فهم يزورونه كل يوم حشوداً، كأن أحزان العشق هي مهرجان، وكأن زيارة الحبيبة في ضريحها بعض من وقد الحب، وكأن الموت من خلال البنيان المرمرى إنما يهب الحث طاقة تمنع عنه الموت".³

وقد أشار الأديب في هذا المؤلف، إلى النقاط البازة التي يتضمنها هذا المبنى الرخامي، منوهاً بأن التاج محل بُني باستخدام الأحجار الكريمة والياقوت والعقيق التي اشتهرت بها الهند، حيث يسرد الكاتب أيضاً بأنه يطلق فيه صيحة خافتة: الله أكبر، ويدوي صوت الكلمتين داخل أعلى القبة لأكثر من عشرين ثانية. ويتذكر الأديب أن

¹ تأملات في بيان مرمرى، ص 95

نفس المصدر، ص 96²

نفس المصدر، ص 97³

هذا المبنى يعكس بداخله وخارجه الحضارة العربية الإسلامية بحد ما:

"وقد عاد بي هذا المثلث إلى إحدى الأفكار الأساسية في الرؤية الإبداعية العربية، التي كانت ولا ريب فاعلة في تخطيط تاج محل..... وفيما بينها، الدور الأول لتحفيزه نحو الإدراك والتركيب والإبداع - بدءاً بمكعب الكعبة في مكة المكرمة، واستمراراً بمثلث مبنى "قبة الصخرة" في بيت المقدس، وهكذا مروراً بكل ما أنتجت الحضارة العربية الإسلامية، من عمارة وزخرفة وشعر وموسيقى"¹.

"وواقع الأمر أنّ ثمة صلة مهمة بين تاج محل وبين بغداد العربية، تتخطى المثلث الذي شيد عليه. فقد تبين من الوثائق المعاصرة لبنائه، رغم ما قيل عن أثر المهندسين العجم في عملية التخطيط، أنّ أحد المعماريين المهمين الذين ساهموا في التخطيط والبناء، كان عربياً من العراق، يدعى واجد البغدادي"².

زد على ذلك، أنّ الكاتب يشير في ذكر الحداثق وتصميم دوران المياه في مثل هذه المباني بما فيها التاج محل، كأنها جنات تجري من تحتها الأنهار، حتى أورد هذا الأديب في هذا الخصوص، اقتباساً لمؤرخ في وصف حداثق قلعة دلهي:

"وكان للحداثق والمياه دورها الأساسي في التصميم والتنفيذ لها، كما في كل ما بناه هؤلاء الأباطرة. فهي أولاً مستوحاة من حداثق الجنة وأنهارها وكما وصفها القرآن الكريم، وكان العرب من قبلهم قد استوحوها... تلك القمة المتميزة التي نعرفها في قصر الحمراء و"جنة العريف" في غرناطة، بالأندلس وهناك نقش في إحدى حداثق قلعة دلهي، مؤرخ في عام 1648، ومنسوب إلى شاه جهان، يقول:

"الحداثق لهذه المباني هي كما الروح للجسد، وكما المصباح للمجتمعين. أما السواقي الصافية، وفأؤها الرقاق ولكل من يرى بعينه المرأة التي تعكس صورة الدنيا، ولكل

¹ نفس المصدر، ص 101

² نفس المصدر، ص 102

حكيم عاقل هو الكاشف عن الخفي من الدين¹.

ومن جهة أخرى، تطرق الكاتب إلى سرد جانب أخروي، عندما يكتب أن الزوار قد يهرون بما يرون من آيات من القرآن الكريم، مكتوبة على بنيان هذه العمارة التي حاول فيها المهندسون جلب رموز الإسلام ولم يهتموا بقدسية المسجد أو المصلى:

ويكتب في هذا الشأن: "ولئن يهر الزوار بمجموعهم بما يرون من هذه الكتابة مدركين، أنها آيات من القرآن الكريم دون أن يستطيعوا قراءة لها.. وهو النص الذي اختاره الأمبراطور شاه جهان ليكلل به بنيانه، ويبارك به جثمان زوجته الحبيبة:

[كلا، إذا دكت الأرض دكاً دكاً، وجاء ربك والملك صفّاً صفّاً، وجيء يومئذ بجهنم، يومئذ يتذكر الإنسان، وأنى له الذكرى، يقول ياليتني قدّمت لحياي، فيومئذ لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد، يا أيّها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي]²

وفي نفس السياق، يكتب الكاتب في مكان آخر:

"ولا ريب في أنه، يوم اختار من سورة الفجر، تلك الآيات الكريمة التي تنذر المرء بآخرته: وجيء يومئذ بجهنم، يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى، يقول ياليتني قدّمت لحياي.. كان قد تأمل طويلاً في الآيات التي سبقها: "ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد"³، آخر الآيات الكريمة، ولا بد أنه توقف طويلاً عند قوله تعالى: (فصبّ عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبر المرصاد"⁴).⁵

كما يحس الكاتب خلفية العائلة المغولية التي اهتم معظم ملوكها بنقش أو كتابة بعض

¹ نفس المصدر، ص 107

² سورة الفجر: 21-30، ذكرها المؤلف في كتابه: تأملات في بنيان مرمرى، ص 98-99.

³ سورة الفجر: 6-8.

⁴ سورة الفجر: 14

⁵ تأملات في بنيان مرمرى، ص 112

الآيات القرآنية على أبواب المباني والعمارات الشاخنة التي بنوها في عصورهم في طول الهند وعرضها. إذ يكتب:

"ولعل شاه جهان.. تذكر ما كان قام به جده قبل حوالي ستين سنة عما قد نقش في أواخر حياته على الباب العالي، باب النصر، الذي ابتناه في فاتح بور، بعد أن هزم الفوجرات في عام 1602م. وما الدنيا إلا جسر للعبور، فاعبر ولا تبني عليه. من يأمل لساعة من الزمن. فله أن يأمل حتى الأبد، ما الدنيا إلا ساعة واحدة، فاقضيها ضارعا، وغير ذلك لا تراه العين".¹

وفيه عبرة لأولي الابصار: وبعد مطالعة كتابات هذا الأديب العلاق بدقة، التي تتعلق بالمعالم الأثرية الكائنة على أرض الهند، نجد أنّ الانطباعات التي أدلى بها الكاتب في هذا الشأن، تنطق عن الجوانب المختلفة من حياة الإنسان بما فيها الذوق الإنساني والطابع الديني ثم الطابع الأخرى بجانب الإبداع، إذ يرى الكاتب هذه المعالم ولا سيما التاج محل صورة عاكسة لفن العمارة الإسلامية، بما توجد في المعالم، صور مثل المكعب والقبة وما إلى ذلك. ويمكن القول إنّ الكاتب حاول تصوير عمارة التاج محل على نحو يذكّرنا العالم الأخرى وصورة عاكسة من جنة النعيم. وذلك ميزة أسلوب الكاتب التي تميزه عن الأدباء الآخرين.

¹ نفس المصدر، ص 112/113

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. البئر الأولى- فصول من سيرة ذاتية لجبرا إبراهيم جبرا، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، 2009م.
3. تأملات في بنيان مرمرى لجبرا إبراهيم جبرا، رائد رئيس بوكس، لندن، 1989م.
4. شارع الأميرات- فصول من سيرة ذاتية لجبرا إبراهيم جبرا، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، 2007م.
5. القاق وتجلد الحياة لعصام الأعرج، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1995م.
6. مجلة النجم الإلكترونية.